

اسم عائلتهم أصبح "لاجئ": العودة وعمل النشطاء المحلبيين

بيتر ليبمان

لن تتحقق عودة اللاجئين المستدامة في البوسنة والهرسك إلا بتضمين الناس العاديين ونشطاء حقوق الإنسان في عملية التعافي على اعتبار أنهم مشاركون كاملون فيها.

هجرت حرب ١٩٩٢-١٩٩٥ ما يزيد على مليوني إنسان أي ما يعادل نصف سكان البوسنة والهرسك. ومن هذا العدد، هرب مليون شخص إلى عشرات الدول حول العالم، أما ما تبقى من المهجّرين، أي النّازحون داخليا، فانتهى المطاف ببعضهم في المراكز الجماعية في البيوت المهجورة التي تعود ملكيتها لأشخاص مهجّرين آخرين، فيما بقي بعضهم الآخر عند الأقارب في الكيانات التي تتبع أعراقهم؛ وهكذا، توجه صرب البوسنة إلى جمهورية صرب البوسنة وكروات البوسنة والبوشناق (البوسنيون المسلمون) إلى الاتحاد الفدرالي.

وفي شرقي مدينة غوراجديه البوسنية، كان البوشناق الذين هجّروا من الضاحية الصناعية لكوباتشيه ومن فيشغارد المجاورة قد تجمعوا ضمن حدود المدينة. أما في الشمال الغربي للبلاد، فعاد بوشناق بريدور وكوزاراتس من كرواتيا لكنّهم بقوا نازحين داخليا. وعاد كثير منهم إلى سانسكي، ومعظمهم عاد إلى مناطق ليست بعيدة كثيرا عن بيوتهم ومع ذلك بقوا في الجانب البعيد من الحد الفاصل بين الكيانيين العرقيين. فيما عاش مهجّروا سريبرينيتسا ممن لم يفرّوا إلى خارج البلاد في ظروف سيئة في توزلا وفي ضواحي سرايفو. وفي أثناء ذلك، هجّر كروات البوسنة ممن طردتهم قوات صرب البوسنة ومن ثمّ قوات البوشناق من بيوتهم التي توارثوها أبا عن جد في وسط البوسنة والهرسك إلى غربي البلاد أو إلى أطراف كرواتيا. وهناك، احتلوا بيوتا يمتلكها صرب البوسنة المطرودون من تلك المناطق. وأعيد توطين صرب البوسنة القادمين من موستار وسرايفو ووسط البوسنة والهرسك في أطراف الكيان الخاضع لسيطرة صرب البوسنة.

ومع أنّ كروات البوسنة والبوشناق تحالفوا معاً في نهاية الحرب، بقي الاتحاد الفدرالي مقسّما عرقيا. وبلغت مساحة الأراضي التي انتهت تحت سيطرة قوات كروات البوسنة حوالي ٢٠% من البوسنة والهرسك فيما بقي ٣٠% منها ضمن سيطرة البوشناق. أما النصف الآخر من البلاد فخضع لسيطرة صرب البوسنة. وأصبحت المجانسة العرقية في تلك المناطق شبه مكتملة، وللمرة الأولى أصبح كروات البوسنة والبوشناق وصرب البوسنة معرّفين على أنهم "أقليات" في تلك المناطق التي لم تكن جماعة كل منهم تمتلك أي سلطة أو نفوذ.

"الفقراء، فقراء وكلهم مقسّمون ومنتشرون في كل مكان" (رابا، ٧٠ عاما، سرايفو)

تقييم الدمار على مستوى الأرض

كان المهجّرون الذين قابلتهم في البوسنة والهرسك بعد الحرب يعيشون في مراكز جماعية (المدارس والثكنات والفنادق التي حوّلت مؤقتا لأغراض الإيواء) وفي بيوت الأقارب أو في البيوت والشقق المهجورة. ومع أنهم كانوا



مكتوب عليه: "مستوطنة العائدين في سوشيسكا" سوشيسكا قرية تابعة لبلدية سريبرينيتسا وكانت أول مستوطنة في تلك البلدية. حزيران/يونيه ٢٠٠٠

على العودة إلى بيوتهم التي كانت لهم ما قبل الحرب. ثم تلا ذلك فترة لم يبذل فيها السياسيون سوى الدعم الشكلي في أحسن الأحوال للعائدين، بل كان الشائع أن أعاق السياسيون تلك العودة علنا مهما كان اتجاهها.

"معظمنا يريد العودة إلى الديار. بالنسبة لي، أستيقظ كل صباح لأسأل نفسي "ماذا أفعل هنا؟" لقد مل أهل توزلا منا. وأصبحنا مواطنين من الدرجة

الثانية هنا. لقد أصبح المقطع الأخير من اسمنا "لاجئ"" (زهرة، مهجرة من براتوناتس إلى توزلا)

على شبك الدوائر الحكومية" ويعني ذلك إثارة الجهات الثلاث دون استثناء للعراقيل الروتينية أمام طلبات الأعداد الغفيرة من المتقدمين بالطلبات. تصف سلافينكا المهجرة من سرايفو المحنة التي واجهتها عند سعيها للعودة قائلة:

وهكذا، ترك للناس العاديين مدفوعين بنشطاء القواعد الشعبية مهمة مناهضة الانقسامات الجغرافية والسياسية التي حدثت بعد الحرب والتي جردتهم من كل قواهم. وبعد مدة قصيرة من نهاية الحرب، احتشد آلاف المهجرين للعودة إلى بيوتهم التي كانت لهم قبل الحرب، لكن عودتهم تلك كانت معركة حقيقية بحد ذاتها. وأسس هؤلاء الناشطون المحليون منظمات للترويج لعودتهم وعودة مجتمعاتهم. وتلفت كثير من هذه المنظمات الدعم من الناس المحليين والمجتمع الدولي أيضاً، لكن العائدين المحتملين واجهوا عوائق وتهديدات من السلطات المحلية ومن أطراف أخرى ممن عملوا في الخفاء على إجهاد مساعي العودة. فما إن أعيد إعمار البيوت حتى قصفت من جديد، وتعرض العائدون للاغتيالات أو التهديدات ليستسلموا ويغادروا المكان من جديد. ثم زُرعت الألغام على الطرقات في جاتسكو وستولاتس. وفي أواخر عام ١٩٩٩، طعن أحد أوائل العائدين إلى سريبرينيتسا وكان موظفاً في المجلس البلدي وتُرك في مبنى البلدية وكأنه ميت. وفي الفترة ذاتها، أحرقت عشرات البيوت التي أعيد بناؤها في سريبرينيتسا.

إقامة المخيمات

استمر إصرار ناشطي القواعد الشعبية ممن قادوا عشرات الجمعيات المحلية التي أطلقت حملات العودة. وعندما عاملتهم السلطات المحلية بخشونة وبعد أن تجاهلتهم الهيئات الدولية، نظمو مخيمات في القرى التي أرادوا العودة إليها أو في جوارها.

أما الرادع الأكبر للعودة فلم يكن مشوباً بممارسة العنف بل كان يتمثل فيما يتعارف عليه محليا في البوسنة بـ "الإعاقة



مكتوب على لافتة الخيمة: "كوباتشييه هي أساس الملحق السابع لكل البوسنة والهرسك" مخيمات على حد غوراجديه فوق قرية كوباتشييه، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩

وتمثلت أولى حملات العودة في عودة البوشناق إلى قرية يوشيتشي التي لا تبعد كثيراً عن زفورنيك في شرقي جمهورية صرب البوسنة. وفي أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٦، أقام عشرات العائدين^٢ بتشجيع من ناشط العودة البارز فاضل بانيانوفيتش الخيم وبدأوا بإزالة الركام المتبقي من بيوتهم الريفية المدمّرة. وكان عليهم إصلاح الطريق المؤدي إلى القرية واتخاذ الحيطة والحذر من الألغام التي عطلت إمكانية زراعة أولى محاصيلهم. وفي أثناء ذلك الشهر "كان عدد أفراد الشرطة يفوق عدد العائدين في إشارة بأنّ العائدين غير مرغوب بهم حتى لو كانوا بين الركام"، حسبما ذكر أحد القرويين. ورغم التهديدات وحالات إطلاق النار من وقت لآخر، ثبت العائدون على موقفهم.

فقط. ونحن نتنظّم لا يرغب في إطلاق النقاشات والحوارات ولا إصدار الإعلانات البرّاقة".

واستجابةً لمثل تلك الضغوط، بدأ المسؤولون الدوليون أخيراً بإحداث التغييرات الحقيقية لدعم العودة عام ١٩٩٩،^٣ وسنّوا قوانين مناهضة لإعاقة العودة وعزلوا بعض أسوأ المخالفين للقوانين من مناصبهم. ومع نهاية العقد الأخير من القرن العشرين، زاد زخم العودة، وفي خلال السنوات التالية القليلة وصلت العودة ذروتها إذ تمكّن مئات آلاف المهجّرين من العودة إلى بيوتهم التي كانت لهم قبل الحرب. ولم تقتصر العودة فحسب على البوشناق إلى أجزاء من الكيان الخاضع لسيطرة صرب البوسنة وغربي البوسنة والهرسك، إذ عاد أيضاً صرب البوسنة وكروات البوسنة والهرسك إلى بيوتهم التي كانت لهم قبل الحرب.

وبحلول ربيع ١٩٩٨، عاد إلى القرية نصف العدد الأصلي للسكان قبل الحرب. وعندها، كانت موجات العودة مستمرة إلى مختلف القرى في ذلك الجزء من جمهورية صرب البوسنة. وفي يوشيتشي، بدأ العائدون بتركيب اعمدة الهواتف للحصول على الطاقة الكهربائية من الاتحاد الفدرالي، لكنّ سلطات جمهورية صرب البوسنة أمرت بإزالة تلك الأعمدة. وكذلك الأطفال العائدون بدؤوا التحرك بالحافلات عبر الحد الفاصل بين الكيانين العرقيين للاتحاق بالمدارس في الاتحاد الفدرالي. ومع مرور الوقت، تحسنت الأوضاع الأمنية حول يوشيتشي في حين بقيت المواصلات والماء مشكلة قائمة لعدة سنوات.

ومع ذلك، بقي أمراء الحرب وخلفاؤهم السياسيون في السلطة ما عني أنّ العودة لم تحدث على نطاق كبير. ففي بعض الأماكن، مثل فيشغارد، لم يحدث أي عودة تُذكر. وفي أماكن أخرى مثل بلديتي بريدور وزفورنيك، لم تمثل العودة في ذروتها أكثر من ٥٠٪ من عدد السكان المقدر قبل الحرب.

مصاعب تواجه التعافي

في الفترة التي تلت استقرار معدلات الحركة، ترسخت الخارطة السكانية للبوسنة والهرسك بوصول ما بين ١٠ إلى ٢٠٪ من العائدين الذين أصبحوا يعيشون في بيوتهم التي كانت لهم ما قبل الحرب. أما من ناحية الفئة العمرية للعائدين، فكانت تميل إلى كفة كبار السن. فالأشخاص

ووجد ناشطو العودة طرقاً عدة لجذب الاهتمام والدعم من المسؤولين الدوليين فظاهروا أمام السفارات وقرب مقرات مكتب الممثل السامي. وفي الشهور المثلثة من أواخر عام ١٩٩٩، أثار تأسيس مستوطنة من الخيم قرب حد الفصل العرقي بين غوراجديه وجمهورية صرب البوسنة انتقاد بعض المسؤولين الدوليين. وكان ذلك المخيم الذي أوى عشرات الأشخاص ممن يفترض بأنهم سيصبحون عائدين مقاماً على تلة فوق كوباتشييه. وأعلى الخيم، عُلفت لافتات كُتب عليها "كوباتشييه مفتاح الملحق السابع" و "كوباتشييه مفتاح العودة". وأخبرني فاضل بانيانوفيتش عندما كنت في مكتبه "لا بديل عن العودة. ونحن مع العودة في كل الاتجاهات. ولن نسميها عودة ثنائية الاتجاهات ولا عودة الأقليات بل نسميها العودة

وبفصل الجماعات العرقية بعضها عن بعض حتى لو كانت تتشارك اللغة والتاريخ والعادات والتقاليد، يتأجج التوتر. وفي الجو العام السائد في البوسنة والهرسك يسعى النشاط إلى توحيد الناس في قضية حقوق المواطنين ومحاربة الفساد. وخلال الفترة التي عاد بها اللاجئون، تعاون الناشطون الأكثر تأثراً عبر الحدود العرقية وحشدوا الدعم للعودة في جميع الاتجاهات. واليوم، لا يقل تأثراً الصراع في مناهضة الفساد والتمييز عندما يتمكن العائدون من الاتحاد مع الشباب من أبناء الجماعة العرقية ذات الأغلبية إذ تزايدت أعداد الشباب في السنوات الماضية ممن يُعلنون عما تكتنفه ضمائرهم. فقد

كانت منظمة أوديسييه في براتوناس (مع أنها توقفت الآن) مثلاً من أمثلة التعاون العابر للأعراق^١ وفي بريدور، كانت منظمة كفارت^٢ التي تفاعرت بتقدمها للمثل للتعاون بين النشاطين من الشباب الذكي والمخلص من صرب البوسنة والعائدين.

يصعب التفاؤل في البوسنة والهرسك ما دامت قيود اتفاقية دايتون تُذكي الفصل مع استمرار قادة البلاد في تنفيذ غايات الحرب التي انتهجها أسلافهم بطرق شبه قانونية. وفي نهاية المطاف، سوف يتحقق التعافي بمجيء جيل جديد من القادة المحليين يكرس نفسه لرفاه الناس العاديين. ولا يقل أهمية عن ذلك التركيز على أنّ التغيير لن يحدث إلا بإشراك جموع الناس العاديين بقيادة النشاط الذين يثقون بهم. وبزيادة التعاون بين العائدين والأشخاص المحليين الذين يتمتعون برجاحة العقل من جميع الأعراق، سوف يكون تحقيق التعافي أمراً ممكناً.

بيتر لييمان pl52ip@hotmail.com

ناشط في حقوق الإنسان وباحث مستقل متخصص في شؤون يوغوسلافيا السابقة.

<http://balkanwitness.glypx.com/journal.htm>

١. عشق في البوسنة والهرسك بين منتصف 1997 ومنتصف 1999 وزرت البلاد منذ ذلك الوقت مراراً لمدد طويلة كباحث أركز على حملات حقوق الإنسان على مستوى القاعدة الشعبية، وحملة العودة ثم حملات أخرى مثل حملة إحياء الذاكرة وحملة مواجهة التمييز.
٢. مدير مكتب كاتون تولا آنذاك لشؤون العودة والمهجرين.
٣. بموجب سلطات بون التي شرعها في ديسمبر/كانون الأول 1997 مجلس تنفيذ السلام المؤسس في دايتون، أنيطت بمكتب الممثل السامي صلاحية سن قوانين البوسنة والهرسك بالإضافة إلى عزل السياسيين المحليين من مناصبهم.
٤. حسب أغسطس/آب 2015، إذ لم تُنشر النتائج النهائية بعد.
٥. انظر مقالة بيدي في "انقسام زمن الحرب في مدارس زمن السلم" صص. 26-27.
٦. انظر <http://balkanwitness.glypx.com/journal2008.htm>.

<http://centarzakladekvartprijedor.blogspot.co.uk/> (باللغة البوسنية)



مبنى مجتمعي فوق كوياتبشيه يستخدمه سكان مخيم عائدي غوراجدييه. تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩

الأصغر سنّاً ممن عاشوا جزءاً لا يُستهان به من حياتهم التأسيسية في بيوتهم الجديدة تمكنوا من إيجاد طريقة للبقاء هناك، بينما غادر الآلاف البلاد جملة واحدة منذ اندلاع الحرب. وتشير النتائج الأولية من الإحصاء الوطني لعام ٢٠١٣ إلى أنّ عدد السكان المحلي بلغ ٣,٧ مليون شخص مقارنة بما كان عليه قبل الحرب (٤,٤ مليون).^٤ وهكذا، في العقد الماضي وما قبله، أشارت النقاشات العامة الدائرة حول العودة إلى أنّ العودة التي حدثت بالفعل مستدامة، لكنها لا تشير إلى انطلاق أي دفعات إضافية للعودة. لكنّ هناك مشكلات ثلاثة بارزة تزيد من تعقيد التعافي في البوسنة.

والمشكلة الأكثر بروزاً هي غياب التعافي الاقتصادي إذ ما زالت معدلات البطالة الرسمية لجميع الأعراق في صعود فبلغت ٤٠%. وفي الأماكن التي تضم عائدين، كان العائدون آخر من يتسلم الوظائف المتاحة، أما من يختار تأسيس عمله الحر فيواجه الروتين المقيّد عدا عن الرسوم التي يترتب عليه دفعها للحصول على أذون تأسيس ذلك العمل. وفي الأماكن التي نُفذت فيها مشروعات الإنماء المحلية، كانت الأولوية تُمنح للعرق السائد.

وكذلك التمييز في التعليم يمثل مشكلة خطيرة إضافية. ففي الاتحاد الفدرالي، يتلقى تلاميذ كروات البوسنة تعليمهم معزول عن البوشناق فيما يمكن تسميته "مدرستين تحت سقف واحد" وذلك في أكثر من خمسين موقعا. وفي ستولاتس التي يسود فيها كروات البوسنة، يدخل تلاميذ البوشناق المدرسة من الباب الخلفي بينما يدخلها كروات البوسنة من الباب الأمامي.